والآن

كان[1] البحر خاشعا خاضعا ، وكان الجو مشرقا ساطعا ، وكانت السفينة بين ذلك تخطر فى كثير من التيه والإعجاب ، وكان الجمع ينتظر فى كثير من الإكبار والإجلال . وكانت الزوارق تسعى على هذا السهل السائل بين السفينة والمدينة ، يكاد يثقلها من تقل من الوفاء والولاء لرئيس الوزراء وكان القدر ومصر يلحظان هذا كله باسمين ، وينظران إلى هذا كله ساخرين ، لأنهما كانا يعلمان كيف دبر ذلك وكيف هيىء له ، ولأنهما كانا يعلمان كيف تكون عاقبة ذلك ، وإلى أين تصير به الأمور .

وكان رئيس الوزراء ينظر إلى هذا كله ، وعلى ثغره ابتسامة لها معنيان ، معنى لنفسه ومعنى للناس . فأما فى نفسه فقد كان ضيقا بهذا كله ، ساخرا من هذا كله . يعلم كيف دبرو يعلم إلى أين يصير .

وأما للناس فقد كان متكلفا الابتهاج الرزين ، مصطنعا الاغتباط المعتدل ، لا يريد أن يرى الناس يأسه ولا ضجره ، ولا يريد أن يحسّ

---

(١) ٦ - ٩ - ١٩٣٣

الناس ضيقه ولا ضجره ، وإنما يريد أن يروا منه ما ينبغى أن يظهر على الجلد الصبور

وكانت هذه الحركات التى وصفتها الصحف من تحية للصاعدين إلى السفينة وخلوة إلى النائب عن رئيس الوزراء ، ثم نزول إلى الزورق وابتسام للمستقبلين ، وذهاب إلى رأس التين واحتمال لهذه المشقة التى تفرضها السياسة على أهلها من لقاء الأعوان والأنصار ، والاستماع للكلام الذى لا يفيد ، والرد عليه بكلام لا يقول شيئا ، ثم الاستراحة ، ثم المقابلة الملكية ، ثم العودة إلى الدار ، ثم نفثة المصدور ، وتنهد الرجل الذى خلص من التكاليف ، وخلا إلى نفسه ليفكر ويستريح .

وكان شيء من الحزن القائم يظلل هذا كله ويلقى عليه رداء يثير فى نفوس المحتفلين كثيرا من الكآبة وكسوف البال . وكان شيء من السخرية الضاحكة الكئيبة يظلل مصر كلها ، فيرسم على وجوه الناس ابتهاجا وابتئاسا فى وقت واحد . فأما الابتهاج فمصدره إخفاق هذه السياسة المنكرة التى سلطت على مصر ثلاثة أعوام ، فلم تبلغ منها شيئا إلا أن زادتها يقينا وإيمانا ، وتثبيتا وإصرارا على الحق ، وجدا فى الوصول إليه . ثم انتهت بعد ذلك إلى ما انتهت إليه من اعتراف الإنجليز بالفشل ، ونقل ممثلهم إلى حيث يستطيع أن يكون نافعا لبلده ، لا يكسب له عداوة الأمم وبغض الشعوب . ومن اعتراف رئيس الوزراء بخيبة الأمل والعجز عن العمل ، واضطراره إلى أن يرفع إلى جلالة الملك رغبته فى أن يريح ويستريح . ومن حق الشعوب أن

تبتهج إذا وجه إليها الكيد فلم يفلح ، ودبر لها المكر ثم لم يصب منها مقتلا . وأما الابتئاس الذى كان يصاحب هذا الابتهاج على وجوه الناس فمصدره أن هذا الشعب العامل الجاهد فى العمل ، النشيط الغالى فى النشاط الذى يجعله عمله وأمله ، ونشاطه وجده أهلا للحياة الراقية الصالحة العزيزة الكريمة ، خليقا بأن يظفر بحريته كاملة ، واستقلاله موفورا ، ينظر فإذا حقه يضاع وإذا كرامته تهدر ، وإذا أموره تدبر على غير ما يريد ، لا يسأل فى ذلك ولا يستشار حتى إذا أعرب عن إرادته ، لم يسمع له ولم يلتفت إليه كأنه لم يوجد بعد ، أو كأنه وجد ليستغل ويستذل ، ويتخذ وسيلة لإرضاء الأهواء والشهوات ، وتحقيق المآرب والمنافع وتمكين الواثبين إلى مناصب الحكم من الاستمتاع بالجاه والسلطان وتمكين المستعمرين من الأجانب من بسط النفوذ وملء الأيدى بالأموال ، ومن حق الشعوب أن تبتئس حين تزرع الخير فلا تجنى ألا شرا ، وحين تسعى إلى الحرية والاستقلال فيضطرها النفعيون إلى ما تكره من الخضوع والذل ، وحين تنفق ما تملك من القوة والجهد لتثبت أنها مخلصة نقية الضمير ، لا تريد بأحد سوءا ، ثم ترى أن غيرها يلقاها بنية ملتوية ، وضمير معوج ، ولا يريد بها إلا الشر والمكروه .

نعم من حق الشعوب ان تبتهج إذا لم يبلغ منها كيد الكائدين ، ومن حق الشعوب أن تبتئس إذا سلط عليها الشر ولم تكن له أهلا . ومن حق الشعب المصرى أن يبتهج حين يرى سياسة السير برسى لورين ودولة صدقى باشا تنتهى إلى نقل أحدهما واستقالة الآخر . ومن

حق الشعب المصرى أن يبتئس إذا رأى أن الجو السياسى قد كثر فيه الضجيج والعجيج ، واشتد فيه اللجب والاصطخاب وكثر فيه السعى الظاهر ، والسعى الخفى منذ أكثر من أسبوع ، لا لشىء إلا لأن رجلا واحدا من الناس يريد أولا يريد أن يحتفظ بالسلطان . يراد له أو لا يراد له أن يظل فى منصب الحكم . فأما الشعب نفسه ، الشعب الذى يكد ويجد ، الشعب الذى يعمل ويأمل ، الشعب الذى لولا وجوده وجهوده ما كانت دولة ولا حكومة ، فليس موضوع تفكير ولا تقدير ، وإنما هو شىء مهمل فى زاوية من زوايا الحياة السياسية ، عليه أن يحتمل الخطوب ويتجشم الهول ، ويصبر على أثقل الأعباء وأشد الحوادث نكرا ، ولغيره من هؤلاء السادة القليلين الذين يتولون الحكم أو يتهيأون له أن يدبروا بينهم أمر الحكم : أيبقى فى يد أولئك ، أم ينتقل إلى يد هؤلاء ؟

هذا كثير وهو خليق أن يحزن الشعب ويسوءه ، ولكنه بعيد كل البعد عن أن يضعف إيمان الشعب بحقه أو يغل عزم الشعب على المطالبة بهذا الحق ، والجد فى الظفر به والوصول إليه .

لقد أعلن رئيس الوزراء عزمه على الاستقالة ، ثم رفع رئيس الوزراء إلى جلالة الملك رغبته فى الاستقالة . وأخذت أحاديث الناس تستفيض عن مصير الحكم إذا استقال صدقى باشا : أيصير إلى الحزبين المؤتلفين ، أم يصير إلى حزب الاتحاد دون حزب الشعب ؟ وأخذت أحاديث الناس تستفيض عن أساليب الحكم إذا استقال

رئيس الوزراء ، أتبقى كما شرعها ورسمها ، أم يصيبها التغيير قليلا أو كثيرا ؟

وكم كان الشعب المصرى يحب أن تستفيض أحاديث الناس بأن أمور الحكم سترد إليه ، وبأنه هو قد أصبح موضوع ما يجيله الساسة سرا أو جهرا من رأى ، وما يهيىء الساسة سرا وجهرا من تدبير .

فقد مضى وقت طويل كان الوزراء ورؤساء الوزارات فيه موضوع الحديث والتدبير . مضى وقت طويل صرفت فيه أمور الشعب على غير ما يرضى . وآن الوقت الذى ينبغى أن تصرف فيه أمور الشعب على ما يرضى .

نعم لقد طال إهمال الأمة فى حساب الساسة ، ودل كل شىء على أن هذا الإهمال لا يؤدى إلى خير ، ولا ينتهى إلى نجاح . فمتى يريد الله إلهام الساسة أن يسلكوا إلى الحكم طريقه الطبيعية المستقيمة فيلائموا بينه وبين آمال الأمة وأمانيها وحقها فى الحرية والاستقلال ؟